

## المعرفة بالله تعالى

٢

## فصل

قل ﴿ الدرجة الثانية معرفة الذات مع إسقاط التفريق بين الصفات والذات ، وهي تثبت بعلم الجمع ، وتصفو في ميدان الفناء ، وتستكمل بعلم البقاء ، وتشارف عين الجمع ﴾ نشرح كلامه ومراده أولاً ثم نبين ماله وعليه فيه ، فكانت هذه الدرجة عنده أرفع مما قبلها ، لأن التي قبلها نظر في الصفات وهذه متعلقة بالذات الجامعة للصفات ، وإن كانت الذات لا تخلو عن الصفات فهي قائمة بها ، ولا تقول : إن صفاتها عينها ولا غيرها ، لما في لفظ الغير من الاجمال والاشتباه ، فإن الغيرين قد يراد بهما ما جاز اقتراحهما ذاتاً أو زماناً أو مكاناً ، وعلى هذا فليست الصفات مغايرة للذات ، ويراد بالغيرين ما جاز العلم باحدهما دون الآخر فيفترقان في الوجود الذهني لافي الوجود الخارجي ، فالصفات غير الذات بهذا الاعتبار لانه قد يقع الشعور بالذات حال ما ينفل عن صفاتها فتتجرد عن صفاتها في شعور العبد لافي نفس الامر . وقوله « مع اسقاط التفريق بين الصفات والذات » التفريق بين الصفات والذات في الوجود مستحيل ، وهو ممكن في الشهود بان يشهد الصفة ويذهل عن شهود الموصوف ، أو يشهد الموصوف ويذهل عن شهود الصفة ، فتجريد الذات أو الصفات إنما يمكن في الذهن ، فالمعرفة في هذه الدرجة تملتت بالذات والصفات جميعاً فلم يفرق العلم والشهود بينهما ، ولا ريب ان ذلك أكل من شهود مجرد الصفة أو مجرد الذات . ولا يريد الشيخ انك تسقط التفريق بين الذات والصفات في الخارج والعلم بحيث تكون الصفات هي نفس الذات <sup>(١)</sup> فهذا لا يقوله الشيخ وإن كان كثير من أرباب الكلام يقولون ان الصفات هي الذات . فليس مرادهم ان الذات نفسها

(١) في ب « بحيث تكون الذات هي نفس الصفات »

صفة ، فهذا لا يقوله عاقل ، وإنما مرادهم ان صفاتها ليست شيئاً غيرها . فان أراد هؤلاء ان مفهوم الصفة هو مفهوم الذات فهذا مكابرة ، وان أرادوا انه ليس هاهنا أشياء غير الذات انضمت اليها وقامت بها ، فهذا حق

والتحقيق ان صفات الرب جل جلاله داخلة في مسمى اسمه ، فليس اسمه الله والرب والإله أسماء لذات مجردة لا صفة لها البتة ، فان هذه الذات وجودها مستحيل ، وإنما يفرضها الذهن فرض المتنوعات ثم يحكم عليها ، واسم الله سبحانه والرب والإله اسم لذات لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال ، كالعلم والقدرة والحياة والارادة والكلام والسمع والبصر والبقاء والتقدم وسائر الكمال الذي يستحقه لذاته ، فصفاته داخلة في مسمى اسمه ، فتجريد الصفات عن الذات والذات عن الصفات فرض وخيال ذهني لاحقيقة له ، وهي أمر اعتباري لافائدة فيه ولا يترتب عليه معرفة ولا إيمان ولا هو علم في نفسه ، وبهذا أجاب السلف الجهمية لما استدلوا على خلق القرآن بقوله الله ( الله خالق كل شيء ) فاجابهم السلف بان القرآن كلامه وكلامه صفاته وصفاته داخلة في مسمى اسمه كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ووجهه ويديه ، فليس « الله » اسماً لذات لانعت لها ولا صفة ولا فعل ولا وجه ولا يدين ، ذلك إله معدوم مفروض في الأذهان لا وجود له في الأعيان كإله الجهمية ، الذي فرضوه غير خارج عن العالم ولا داخل فيه ولا متصل فيه ولا منفصل عنه ولا محايث له ولا مباين ، وكإله الفلاسفة الذي فرضوه وجوداً مطلقاً لا يتخصص بصفة ولا نعت ولا له مشيئة ولا قدرة ولا ارادة ولا كلام ، وكإله الاتحادية الذي فرضوه وجوداً سارياً في الموجودات ظاهراً فيها هو عين وجودها ، وكإله النصارى الذي فرضوه قد اتخذ صاحبة وولداً وتدرع بناسوت ولده واتخذ منه حججاً ، فكل هذه الآلهة ماعلمته أيدي أفكارها . وإله العالمين الحق هو الذي دعت اليه الرسل وعرفوه باسمائه وصفاته وأفعاله فوق سمواته على عرشه بأئن من خلقه ، موصوف بكل كمال ، منزّه عن كل نقص ، لا مثال له ولا شريك ولا ظهير ، ولا يشفع عنده أحد الا بإذنه ، هو الاول والاخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، غني بذاته عن كل ماسواه وكل ماسواه فقير اليه بذاته

قوله « وهي تثبت بعلم الجمع ، وتصفر في ميدان الفناء » يعني ان هذه المعرفة الخاصة تثبت بعلم الجمع ، ولم يقل « مجال الجمع ولا بعينه ولا مقامه » فان علمه أولاً هو سبب ثبوتها ، فان هذه المعرفة لا تنال الا بالعلم فهو شرط فيها ، وسيأتي الكلام — ان شاء الله تعالى — في الجمع عن قريب . فاذا علم العبد انفراد الرب سبحانه بالازل والبقاء والفعل وعجز من سواه عن القدرة على ايجاد ذرة أو جزء من ذرة ، وانه لا وجود له من نفسه فوجوده ليس له ولا به ولا منه . وتوالي هذا العلم عن القلب لا يسقط ذكر غيره سبحانه عن البال والذكر ، كما سقط غناء ور بوبيته ومملكته وقدرته ، فصار الرب سبحانه وحده هو المعبود والمشهود المذكور ، كما كان وحده هو الخالق المالك الغني الموجود بنفسه أزلاً وأبداً ، وأما ما سواه فوجوده وتوابع وجوده عارية ليست له ، وكما في العبد عن ذكر غيره وشهوده صفت هذه المعرفة في قلبه ، فلم هذا قال « ونصفوني ميدان الفناء » واستعار الشيخ للفناء ميداناً وأضافه اليه لاتساع مجاله لأن صاحبه قد انقطع التفاته الى ضيق الاغيار ، انجذبت روحه وقلبه الى الواحد القهار ، فهي تجول في ميدان أوسع من السماوات والأرض ، بعد ان كانت مسجونة في سجون المخلوقات . فاذا استمر له عكوف قلبه على الحق سبحانه ونظر قلبه اليه كأنه يراه ، ورؤية تنوره بالخلق والامر والنفع والضر والعطاء والمنع — كملت في هذه الدرجة معرفته ، واستكملت بهذا البقاء الذي أوصله اليه الفناء وشارفت عين الجمع بعد علمه ، فغاب العارف عن معرفته بمعرفة وعن ذكره بمد كوره وعن محبته وارادته بمراده ومحبه به فاذلك قال :

« ويستكمل بعلم البقاء ويشارف عين<sup>(١)</sup> الجمع » ولهذا المعرفة ثلاثة أركان<sup>(٢)</sup>

أشار اليها الشيخ بقوله « ارسال الصفات على الشواهد ، وارسال الوسائط على المدارج ، وارسال العبارات على المعالم » شواهد الصفات هي التي يشهد بها ويدل عليها من الكتاب والسنة وشهادة العقل والظنرة وآثار الصنعة فاذا تمكن العبد في التوحيد علم ان الحق سبحانه هو الذي دله صفات نفسه بنفسه ، لم يعرفها العبد من ذاته ولا بغير تعريف الحق له بما أجراه له سبحانه على قلبه من معرفة تلك الشواهد

(١) في المتن « بعين الجمع » (٢) في المتن « وهي ثلاثة أركان : ارسال ، نسخ

والانتقال منها الى شهود<sup>(١)</sup> المدلول عليه ، فهو سبحانه الذي شهد لنفسه في الحقيقة ، اذ تلك الشواهد مصدرها منه فشهد لنفسه بنفسه بما قاله وفعله وجعله شاهداً لمعرفته . فهو الاول والاخر ، والعبء آله محضة ومنفعل ومحل لجريان الشواهد وآثارها وأحكامها عليه ليس له من الامر شيء ، فهذا معنى ارسال الصفات على الشواهد ، فاذا أرسلها عليها تبين له ان الحكم للصفات دون الشواهد بل الشواهد هي آثار الصفات ، فهذا وجه

ووجه ثان أيضاً وهو أن الشواهد بوارق وتجليات تبدو للشاهد ، فاذا أرسل الصفات على تلك الشواهد تواري حكم تلك البوارق والتجليات في الصفات وكان الحكم للصفات فحينئذ يترقى العبد الى شهود الذات شهوداً علمياً عرفانياً كما تقدم قوله « وارسال الوسائط على المدارج » الوسائط هي الاسباب المتوسطة بين الرب والعبد التي بها تظهر المعرفة وتوابعها ، والمدارج هي المنازل وال مقامات التي يترقى العبد فيها الى المقصود ، وقد تكون المدارج الطرق التي يسلكها اليه ويدرج فيها ، فارسال الوسائط التي من الرب على المدارج التي هي منازل السير وطرقه توجب كون الحكم لها دون المدارج فيغيب عن شهود المدارج بالوسائط وقد غاب عن شهود الوسائط بالصفات فيترقى حينئذ الى شهود الذات ، وحقيقة الامر أن يعلم أن الرب سبحانه ما أطلعه على معرفته الا بشواهد منه سبحانه وبوسائط ليست من العبد ، فهو قادر على قبض تلك الشواهد والوسائط وعلى اجرائها على غيره فان الامر كله له وتلك الوسائط لا توجب بنفسها شيئاً قال الله تعالى لرسوله ( ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً الا رحمة من ربك - وقال للامة على لسانه - قل أرايتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به - وقال تعالى - قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراك به ) ويعلم العبد ان ما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله من شواهد معرفته والايمان به هي معالم يهتدي بها عباده اليه ويعرفون بها كماله وجلاله وعظمته ، فاذا تغنوا صدقه ولم يشكوا فيه وتفظنوا لآثار أسمائه وصفاته في أنفسهم وفي سواهم انضم شاهد

(١) في ب « المشهود »

العقل والفتوة الى شاهد الوحي والشرع ، فانتقلوا حينئذ من الخبر الى العيان ، فالعبارات معالم على الحقائق المطلوبة ، والمعالم هي الأمارات التي يعلم بها المطلوب ، فإذا أوصل العارف كل معنى مما تقدم ذكره على مقصوده وصرف همه الى مجريه وناصبه ومصدره اجتمع همه عليه وتمكن في معرفة الذات التي لها صفات الكمال ونعوت الجلال ، ومقصوده أن يبين في هذه الأركان الثلاثة حال صاحب معرفة الذات وكيف ترتب الاشياء في نظره ويترقى فيها الى المقصود .

مثال ذلك ان الشواهد أرسلته الى الصفات بارسالها عليها فانتقل من مشاهدتها الى مشاهدة الصفات والوسائط التي كان يراها آية على المدارج انتقل فانتقل منها الى المدارج ولم يلقها وإنما تعلق بما هي آية له . والعبارات التي كانت عنده ألفاظا خارجة عن المعبر عنه صارت أمارات توصله الى الحقيقة المعبر عنها . فهذه الأركان الثلاثة يصير من أهل معرفة الذات عنده

قوله ﴿ وهذه <sup>(١)</sup> معرفة الخاصة التي تؤنس من أفق الحقيقة ﴾ أي تدرك ونحس من ناحية الحقيقة ، والايناس الادراك والاحساس قال الله تعالى (فان آنتم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم) وقال موسى (اني آنت من جانب الطور نارا) والمقصود ان العارف اذا تعلق همه بافق الحقيقة وأعرض عن الأسباب والوسائط — لايعرض لجهود وانكار بل يعرض اشتغال ونظر الى عين المقصود — أوصله ذلك الى معرفة الذات الجامعة لصفات الكمال والله سبحانه وتعالى أعلم

## فصل

قال ﴿ الدرجة الثالثة معرفة مستغرقة في محض التعريف ، لا يوصل اليها

الاستدلال ، ولا يدل عليها شاهد ، ولا تستحقها وسيلة ، وهي على ثلاثة أركان :

مشاهدة القرب <sup>(٢)</sup> والصعود عن العلم ، ومطالعة الجمع ، وهي معرفة خاصة لخاصة ﴿ أما كانت هذه المعرفة عنده أرفع مما قبلها لان ما قبلها متعلقة بالوسائط والشواهد متصلة الى المطلوب ، وهذه متعلقة بعين المقصود فقط ، طهية للوسائط والشواهد ،

(١) في المتن «وهي معرفة» الخ (٢) في المتن «التلوب» واعلمها غلط

فالوسائط صاعدة عنها اليه وهي نالبة على حال المعارف وشهوده وقد استغرقت ادراكه لما هو فيه بحيث غاب عن معرفته بمعرفته وعن ذكره بذكره وعن وجوده بموجوده فتقوله « مستغرقة في محض التعريف » المعرفة صفة العبد وفعلة ، والتعريف فعل الرب وتوفيقه ، فاستغرقت صفة العبد في فعل الرب وتعرفة نفسه لعبده . وقوله « لا يوصل اليها بالاستدلال » يريد ان هذه المعرفة في الدرجة الثالثة لا يوصل اليها بسبب فان الأسباب قد انطوت فيها ، والوسائل قد انقطعت دونها ، فلا يدل عليها شاهد غيرها ، بل هي شاهد نفسها ، فشاهدها وجودها ودليلها نفسها . ولا تمجّل بانكار هذا فالأمور الوجدانية كذلك ودليلها نفسها وشاحدها حقيقتهما ، فتصير هذه المعرفة للمعارف كالأمور الوجدانية . كاللذة والفرح والحب والخوف وغيرها من الأمور التي لا يطلب من قامت به شاهدا عليها من سوى أنفسها

ولمعرفة الله ان هذه درجة من المعرفة منيفة ورتبة شريفة تقطع دونها أعناق مطايا السائرين ، فاذلك لا يوصل اليها بالاستدلال ولا يدل عليها شاهد ولا نستحقها وسيلة ، والاعمال والأحوال والائتمات كلها وسائل وهي لا تستحق هذه الدرجة من المعرفة وإنما هي فضل من الفضل كله بيده وهو ذو الفضل العظيم ؛ وكون الوسائل المذكورة لا تستحقها لا تمنع من القيام بها على أتم الوجوه وبذل الجهد فيها ، ومع ذلك فلا تستحقها الوسائل

قوله « وهي على ثلاثة أركان : متاهدة الترب والصمود عن العلم ومطالعة الجمع » أمّا كانت هذه الثلاثة أركاناً لها لان صاحب هذه المعرفة قد وصل من الترب الى مقام يليق به بحسب معرفته فكأنما كانت معرفته أتم كان قربه أتم ، فان شهود الوسائط والوسائل حجاب عن عين القرب ، وإنفاؤها وجمودها حجاب عن أصل الايمان . وأما صعوده عن العلم فليس المراد به صعوده عن أحكامه فان ذلك سقوط وزول الى الخفيض الأدنى ، لا صعود الى المطلب الأعلى ، وإنما المراد انه يصعد بأحكام العلم عن الوقوف معه وتوسيطه بينه وبين المطلوب فان الوسائط قد طوي بساطها في هذا الشهود والمرفان ، أعني بساط الوقوف معها وانظار اليها فيدرك مشهوده ومعرفة به سبحانه لا بالعلم والخبر بل بالمتساهة واليهان ، وان كان لم يصل الى

ذلك الا بالعلم والخبر لكنه قد صعد من العلم والخبر الى المعلوم المخبر عنه .  
 واما مطالمة الجمع فهي الغاية عند هذه الطائفة ، ونحن لانكر ذلك لكن : أي  
 جمع هو ؟ هل هو جمع الوجود كما يقوله الانحادي ؟ أم جمع الشهود كما يقوله صاحب  
 الفناء في توحيد الربوبية ؟ أم هو جمع الارادة كلها في مراد الرب تعالى الديني الامري ؟  
 فالشأن في هذا الجمع الذي مطالمة من أعلى أنواع المعرفة . نعم هاهنا جمع آخر مطالمة  
 هي كل المعرفة وهو جمع الافعال في الصفات وجمع الصفات في الذات وجمع الاسماء  
 في الذات والصفات والافعال ، فمطالمة هذا الجمع هي غاية المعرفة وأعلى أنواعها ،  
 وهي لعمر الله معرفة خاصة الخاصة ، والله المستعان وبه التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله إهـ

[ المنار ]

ان أكثر الناس يرون هذا الكلام غريباً لا يكاد يفهم ، ويعدون هذه المعرفة  
 خيالية لاتكاد تعقل ، وبمثل هؤلاء العارفين في نظر جمهور أهل العلوم النظرية والفنون  
 العملية ، كمثل خواص الادباء الذين يتمتعون بجمال المعاني الدقيقة ، متجلية في العبارات  
 الرشيقة ، في نظر عوام أهل البلادة . ذوي العي والفهاة ، — أو كمثل بعض أهل  
 الذوق السليم ، العاشقين لجمال هذا الكون العظيم ، يوثمون روضة غناء ، أو غابة غيباء ،  
 يسابقون اليها أشعة الشمس ، ليمتعوا بجمالها الحس والنفس ، — في نظر مجرم فظ ،  
 غليظ الطبع ، لا يرى حظاً من تلك الروضة الا أن يبحث أزهارها ، ويقطع أشجارها ،  
 ليتخذ الاولى علفاً لحماره ، والثانية وقوداً لئاره ، أو كمثل المغرمين بآلات الطرب ،  
 وسماع الاطمان في العشق والادب ، في نظر العابد المتبتل ، أو العجوز الثاقل ،

على أن جميع اللذات المعنوية ما أشرنا اليها منها وما لم نذكر اليه هي مبادئ  
 ووسائل لتلك اللذة الروحية العليا التي يجدها العارفون بالله تعالى ، فكل ما في الكون  
 من الجمال والكمال فهو بعض جماله وكمال عجز وجل ، اذ هو صنع الله الذي أتقن  
 كل شيء . وكل طائفة من طوائف البشر المرتقية تتمتع بنوع من أنواع جمال  
 الكون والعارفون بالله هم الذين يتمتعون بكل نوع من تلك الانواع تمتعاً ارقى واعلى  
 من تمتع المفردين بالارتقاء فيه ، ويتمتعون بما هو أعلى من ذلك وأجل واكمل ،  
 وقد ضربنا لذلك المثل ، والله اعلى واجل .